بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

من دراستي للتصوف، واطلاعي على أخلاق الصوفية وما يأخذون به أنفسهم من ألوان العبادات الشرعية، والمجاهدات النفسية، ووقوفي على ما يتمتعون به من إيمان عميق، والتزامهم بأخلاق الإسلام، وحرصهم الشديد على الاقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه و سلم قولا وعملا. وتفانيهم في حب الله قد جعلني ذلك كله أبحث في موضوع هذه الدراسة وهو "التصوف الإسلامي ودوره في التربية الأخلاقية للمسلم".

فمن ذا الذي لا يعجب، بإنسان مواظف مواظبة تامة ، على أداء العبادات ويكثر من النوافر تقربا إلى ربه، حضورا معه بقلبه، وعقله حين أداء العبادات، وليس مجرد، حركات بدنية بلا روح، يؤديها دون تعقل، أو تفكر وهو مشغول عنها بأمور الدنيا ومن ذا الذي لا يرضيه، أن يجد من يقبل على الله بقلبه، في إخلاص وحب وخوف ورجاء ومن منا لا يتمنى أن يجد الناس جميعا قد بدلوا صفات نفوسهم الذميمة، بصفات حميدة متخلقين بأخلاق الإسلام السامية ومتمتعين بنفوس راضية، قنوعة، وقلوب صافية من كل دنس، وعامرة بحب الله، وحب الخير وحب الناس، وحب الفضائل لإمارة بالسوء وتطويعها للنفس المطمئنة بتصفيتها من الشوائب والشواغل – وما اكثرها في عصرنا – والتي تعوق السالك وتشغله عن ربه، وعن الالتزام بالشرع وتجعله يتعاون في أداء العبادات والطاعات.

إذا كان الأمر هكذا فلماذا يهاجم التصوف رغم ما له من دور عظمى في تهذيب سلوك المسلم، وتقوية إيمانه بربه وتمسكه بدينه.

إن السبب لا يخفى على أحد، ونحن لسنا في حاجة إلى دقة البحث لمعرفته فهو واضح وضوح الشمس، ذلك أن التصوف كان له جوانبه السلبية، التي دعت الفقهاء إلى الهجوم عليه وعلى أهله من ذلك – استعمال الصوفية للرموز، والكلام الغامض

والعبارات المغلقة، وما كان ينطق به أصحاب الشطحات من الصوفية في حال الفناء من عبارات مخالفة لظاهر الشرع.

وما دخل على التصوف من فلسفات ناءت به عن روح الإسلام كالقول بالحلول والاتحاد، ووحده الوجود، ووحدة الشهود وغيرها- وما يتبعه الصوفية من رسوم في مجالس الذكر والسماع اعتبرت بدعة في الدين، وما يقوم به بعض الذاكرين، أو السامعين من حركات بدنية أو إطلاق الأصوات، أو فقدان الوعي من شدة الوجد كل ذلك وغيره اعتبر بدعة في الدين.

- وما يحدث في موالد الأولياء من اللهو والتجاوزات التي لا تتفق مع الشرع والتي اعتبرت بدعة أيضا وما يرتديه البعض من الملابس الممزقة وإهمال في المظهر يسيئ إلى الإسلام.

- وما تحويه كتب الطبقات من كرامات وخوارق أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، أو هي على أقل تقدير تحتوي على مبالغات كثيرة والصوفي الصادق لا يتباهى بالكرامة بل أنه يعمد إلى ستر حاله ويعتبر أن في إظهارها خروج على آداب التواضع.

- كما أن الذي ينقطع للعبادة إنسان غير منتج بينما الإسلام يحث على العمل والإنتاج حتى يمكن المجتمع المسلم مجتمع قوي ومنتج.

- كما أن نزعة التوكل تتطور عند بعضهم فيعتبر متواكلا ويعتمد على غيره من إطعامه والتكفل بمعيشته وهذا أمر مرفوض شرعا.

- كما احتج يعني من هاجم التعرف بأنه لم تعرف في أيام الرسول ولا صحابته ولا في عصر التابعين ولم يذكر لفظ تصوف في القرآن ومن هنا اعتبر بدعة.

والحقيقة أن الناظر لهذه الأسباب لا تخفى عليه وجاهتها فالإسلام يدعو إلى مجتمع عامل ونشيط ومنتج فاليد العليا خير من السيد السفلى وهو في حاجة إلى رجال أقوياء فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف والنظافة درجة من درجات الإيمان وحسن مظهر المسلم والاعتناء به مطلب شرعي والكتاب والسنة ليس سهما وحدة وجود ولا وحدة شهود ولا حلول ولا اتحاد ولا يقر الإسلام ما ينطق به الصوفية أصحاب الشطحات من عبارات خارجة عن صريح الشرع وهكذا.

وإذا كان ذلك كذلك فليس أمامنا ألا أن نشقي التصوف من جميع هذه الشوائب وغيرها ونبرز وجه التصوف الجميل الذي يتمثل في الالتزام بالكتاب والسنة والذي يهدف إلى التربية الأخلاقية للمسلم ويعمق إيمانه بالله والسعي للرزق الحلال، مع عدم جعل الدنيا أكبر همنا. ولا نشتغل بأمورها ومباهجها من ذكر الله والتقرب إِليه وأن نطلب العلم الدنياوي مع إدراك قدرة الله تعالى في خلقه وتكوينه للموجودات ومراقبة الله في كل سلوكنا وأقوالنا وأفعالنا وأن نتخلق بأخلاق القرآن ونقتدي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ونكون بذلك قد عدنا بالتصوف إلى فطيرة الإسلام وإلى ما كان عليه في زمن الإمام الغزالي من الالتزام بالكتاب والسنة.

ومن هنا فقد قسمت هذا البحث إلى فصلين:

في الفصل الأول : تناولت مفهوم التعرف لغة واصطلاحا والرياضات العملية التي يصطنعها الصوفية ويتخذونها وسيلة لمجاهدة النفس وتهذيبها كالصلاة، والصوم، والسهر، والدعاء، والأوراد، والصمت والعزلة، والخلوة، والذكر، والسماع، مع الاهتمام بتوضيح أثر هذه العبادات على سلوك المسلم المؤدي لها.

وفي الفصل الثاني: تناولت المقامات والأحوال الصوفية ودورها في تهذيب سلوك المسلم كمقام التوبة ومقام الزهد و مقام التوكل، ومقام الشكر، ومقام الإحسان، ومقام التقوى ومقام الورع، ومقام الخوف والرجاء، ومقام الصدق، ومقام الحياء، ومقام التواضع، و مقام الرضا، ومقام المحبة والشوق، ومقام المراقبة والمحاسبة، ومقام الصبر، ثم أوضحت أثر التحقق بكل مقام من تلك المقامات في التربية الأخلاقية للمعلم وما يكتسبه من صفات حميدة أثر تحققه بها.

وتعرضت لواردات الأحوال التي ترد على قلب السالك نتيجة لما يروض به نفسه من رياضات عملية وروحية كحال القرب، وحال اليقين، وحال القبض والبسط، وحال الفناء والبقاء.

وأوضحت أن تلك الوسائل يتخذها الصوفي للوصول إلى الغاية الكبرى من التصوف وهي معرفة الله معرفة قلبية يقينية لدنية لا يتطرق إليها الشك.

وفي تعقيب على هذه الدراسة أوضحت الجوانب السلبية في التصوف والتي جلبت عليه هجوم المهاجمين ووجهت أن السبيل إلى تنقية التصوف مما لحق به من سلبيات هو الالتزام التام بالكتاب والسنة والبعد عن البدع والشطحات وما يسيئ إلى التصوف وإلى الإسلام والمسلمين.

وأنه علينا أن نفرق بين الصوفية الكُمَّل المتحققين وبين المدعين للتصوف وهذا ما فعله الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) الذي كان له دوره البارز وجهوده العظيمة في محاولة تنقية التصوف مما لحق به من شوائب وبدع اعتبرت مرادفة للزندقة وفي النهاية كانت خاتمة البحث أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها ثم ثبت بالمراجع.

وأدعو الله ألا أكون قد جانبت الصواب

والله ولي التوفيق

كوكب عامر